فعلى شواطئ امريكا اقليم واسع هو اقليم كليفورنيا . هل يعلم القارئ ما هي كليفورنيا التي لا شك الآن في انها حقيقة من حقائق البيان ؟ هي في الخرافات الاسبانية كجزائر الواق في الخرافات العربية ، هي مدينة من مدن الاوهام تخيلها الكاتب الاسباني « منتالفو » في اواخر القرن الخامس عشر وافرغ عليها مسحة من السحر وذهباً من كنوز الخيال التي لا تنفد وجعلها على مقربة من بلاد الهند التي كانت في ذلك العهد كعالم الغيب في اوهام الرواة ، فلما شخصت السفن الى الغرب لترتاد السبيل الى بلاد الذهب والجوهر كانت قصة الملكة كلافيا صاحبة تلك المدينة في وطاب كل ملاح يشق غمار العباب من أجل ذلك السراب ! وكانت « كليفورنيا » هي الاسم الذي اختاره الرواد لارض الكنوز والاعلاق حين تمثل الحلم في وضح النهار ، ولولا تلك الاحلام وما أشبهها لبقيت امريكا في ضمير الغيب ولما أصبحت جزيرة الواق مكاناً معهوداً على خريطة هذا العالم المعمور ! ولئن بات العالم خلواً من شوامخ الاقطار التي تهدينا اليها الاقاصيص فانَّ في اطواء كل نفس لاقطاراً شامخات لا يزال يهدينا اليها الحلم ولا تزال تشقُّ اليها النهار ولا تزال هي الثروة التي من اجلها تنفق الثروة وهي النضار الذي من أجله نطلب النضار

والناس يخطئون فهم « الامريكيات » التي يسمونها بالواقعيات وينكرون من أجلها الشعريات والخياليات . فما كان أبناء امريكا وسكانها متهافتين على الذهب لانهُ الذهب ولا كانسين المال لانهُ المال . انما يتهافتون على الذهب لانهُ الوسيلة الى ما يتعطشون اليهِ من إحساس الحياة والامتداد الذي يمدّون به قدرتهم على ان يملوا عملهم ويشعروا شعورهم ويأخذوا من الآمال بنصيبهم ، فاذا بلغ بهم الذهب أقصى حدوده تجاوزوه في طلب الاحساس الى المخاطرات والمجازفات وركبوا البحر والهواء الى الموت او الى لحظة من الزمن يتجمع فيها من شعور الحياة ما هو وسق أعمار وأجيال

الاحساس هو عملة الحياة لا عملة غيرها ولا يمكن ان يكون غيرها عملة صحيحة ، فكل شيء في هذه الدنيا لا يتحول في نهاية امره الى احساس هو زيف وهباء وهو خديعة وهراء وهو عدم او كالعدم في عالم الاحياء

***

يقول العالم الكبير الاستاذ ارثر كيث في مقاله الذي ترجمهُ له مقتطف ديسمبر الماضي بعنوان الزمن بالعلم : « اطلعت الآن في صحف الصباح على ان سكان بلادي اسكوتلندا كانوا حينما ولدت منذ اثنين وستين سنة ٣٤٢٢٥٠٠٠ نسمة يحرثون ويزرعون ١٤٤٧٠٤٠٠٠ فدان اي ما متوسطهُ نصف فدان للنسمة الواحدة منهم . وقد زاد السكان الآن حتى بلغ

عددهم نحو خمسة ملايين نسمة ونقص ما يحرثونهُ من الارض ويزرعونهُ الى ١،٤٧،٠٠٠ فدان اي ان المتوسط نقص الى نحو ربع فدان للنسمة الواحدة ، ومع ذلك نرى سكان اسكوتلندا الآن أوفر راحة ورخاء من سكانها في أواسط القرن الماضي ، فطعامهم أنظف وأكثر غذاء وبيوتهم أكثر راحة ودفأً وملابسهم أليق وأغلى ونظام تعليمهم أرقى وأشمل ونفقاتهم العامة تضاعفت . وما يقال عن اسكوتلندا يقال عن انكلترا وويلس بوجه عام . فكأنا حققنا المستحيل فكيف فعلنا ذلك ؟ لقد حققنا هذا التقدم بثمار عقولنا التي استعملناها أدوات للعلم . والحق يقال اننا سكان الجزائر البريطانية قد عدنا لا نعتمد على حاصلات ارضنا بل على خصب عقولنا ومنتجاتها . فساحة بلادنا يجب ألا تقاس بالفدان وألا يبنى على قياسها كذلك ما يمكن ان تسعهُ من السكان . وعلينا ألاّ نخوف من ازدحام السكان في بلادنا .. قبل ان تبلغ قوانا العقلية حدّها من التقدم والاكتشاف والاختراع وتصاب عقولنا بالعقم ... »

لهذا يؤمن العالم الكبير بالعلم ويؤمن برسالة العلماء . فالآن ما محصل كل هذا ان لم يكن محصله ان الناس يحسون في هذا العصر أحسن مما قد أحسوا قبل ستين سنة ويتشوقون أحسن مما تشوقوا ويستريحون أحسن مما استراحوا ؟ فالذين يطلبون الحياة بغير أدب يطلبونها بغير احساس لانها لن تحس الا عبرت ولن تعبر تعبيراً جيلا الا كان لها أدب في صورة من صور الآداب

***

ومن المقارنات الخاطئة ان يوضع العلم في المكان المقابل للادب كأنَّ العلم يمنع الادب او كان الادب يمنع العلم او كان الامم لا يمكن ان تتفق لها علوم وآداب في وقت واحد . فكل أمة تحسن التشوق والاستطلاع تحسن العلم وتحسن الادب ، وكل علم لا يكون باعثهُ الشعور الصادق بالحياة ولا تكون غايتهُ من هذا القبيل هو علم كالجهل او اقل الجهل خير منهُ لان الجهل كان في الدنيا وكان فيها العظماء والسعداء والغالبون والفاتحون ، بل كانت الشمس تدور حول الارض في نظر ألوف من سكان هذه الكرة السابحة في الفضاء كانوا أعظم وأقدر من أناس يعلمون اليوم انها كرة سابحة في الفضاء ! وقد سبحت الارض سبحها ولم تقف لمحة عين لان سكانها ساخوا الدهور يجهلونها ويظنون بها الوقوف

***

قال لي صديق من المؤلفين المعروفين وقد رأى في يدي ديواناً من الشعر : «ما رأيك اني لأحسب ان الشعر شيء قد مضى أوانهُ وانهُ لَوْ قد يستهوي صغار الشبان ولكنهُ